المحاضرة الأولى:

الدليل المرجعي الشامل لتأسيس وتدريس مساق "نظريات الفن" و"فلسفة الجمال"

علي كريم

مقدمة: الإطار المنهجي والإبستمولوجي للمساق

يشكل تدريس مساق "نظريات الفن (Theories of Art) "و"فلسفة الجمال " (Aesthetics) في المؤسسات الأكاديمية العربية تحدياً معرفياً مزدوجاً ومتشابكاً؛ فهو يستدعي من جهة الإحاطة بالمتن الفلسفي الغربي الذي صاغ معظم المصطلحات والمفاهيم المتداولة اليوم (مثل: المحاكاة، التطهير، الجليل، التجريد)، ومن جهة أخرى يتطلب تجذير هذه المفاهيم في الوعي الثقافي والجمالي للطالب العربي، وربطها بالسياقات المحلية والتراثية[1].

إن الهدف من هذا التقرير المرجعي هو تزويد الأستاذ المحاضر بنسيج معرفي متماسك، يتجاوز السرد التاريخي الكرونولوجي الجاف للأفكار، ليقدم تحليلاً بنيوياً للتحولات الكبرى في مفهوم "الفن" و"الجمال" عبر العصور. سنركز على كيفية انعكاس هذه النظريات على الممارسات الفنية المعاصرة ومناهج كليات الفنون الجميلة، مع الانتباه إلى "أزمة المصطلح" التي يواجهها الطالب العربي عند محاولة إسقاط نظريات نشأت في سياق أوروبي على واقع بصري عربي مغاير[3].

التحول من "صناعة اليد" إلى "صناعة العقل"

ينطلق تصميم هذا المساق من فرضية أساسية مفادها أن "الفن" ليس ممارسة تقنية معزولة (Craft)، بل هو نشاط فكري واجتماعي لا يمكن فهمه إلا من خلال الأطر النظرية التي أنتجته أو فسرته. وكما تشير توصيفات المساقات في الجامعات الرائدة، فإن الطالب لا يحتاج فقط إلى تعلم "كيف يرسم" (المهارة الأدائية)، بل "كيف يفكر" في الرسم، وكيف يدرك الموقع الأنطولوجي (الوجودي) للعمل الفني في العالم.

استراتيجية التوطين المعرفي

لتحقيق ذلك، تم تقسيم هذا الدليل إلى وحدات مفاهيمية كبرى .(Paradigms) سنعتمد في هذا الطرح على دمج المصادر الأولية (النصوص المؤسسة لأفلاطون، أرسطو، كانط، هيجل، بورديو) مع القراءات النقدية المعاصرة. والأهم من ذلك، سنركز بشكل خاص على كيفية "توطين" هذه المعرفة في السياق الأكاديمي العربي. هنا يجب الإشارة إلى جهود منظّرين عرب سعوا لردم الهوة، مثل:

- **شربل داغر** :الذي بحث في إشكاليات "الفن العربي المعاصر" وعلاقته بالنظريات الغربية ومفهوم "اللوحة" الدخيل على الثقافة البصرية العربية التراثية.
- **عفيف البهنسي** :الذي عمل على تأصيل "جمالية الفن العربي" وربطها بالفلسفة الصوفية والتوحيدية، مقدماً بديلاً للنظرة الاستشراقية.
- **أميرة حلمي مطر** :التي قدمت الفلسفة اليونانية والجماليات بلغة عربية رصينة.

أولا: النموذج الكلاسيكي وجدلية المحاكاة(The Mimetic Paradigm)

تمثل نظرية المحاكاة (Mimesis) نقطة الانطلاق الحتمية لأي مساق في نظريات الفن. في هذه الوحدة، يجب أن نوضح للطلاب أن المحاكاة ليست مجرد "تقليد" بسيط، بل هي المفهوم الذي سيطر على الفكر الغربي لأكثر من ألفي عام، وطرح الأسئلة التأسيسية التي لا تزال تؤرق الفلسفة حتى اليوم: ما علاقة الصورة بالواقع؟ وهل الفن طريق للحقيقة أم حجاب لها؟

أفلاطون: الاغتراب الأنطولوجي ومحاكمة الصورة

في محاضرات هذا القسم، يجب التركيز على تفكيك الموقف الأفلاطوني، وتوضيح أنه لم يكن عداءً للجمال (فأفلاطون عاشق للجمال المطلق)، بل كان موقفاً معرفياً (Epistemological) وسياسياً صارماً تجاه "الصور الخادعة."

أ) التراتبية الوجودية: سرير النجار وسرير الرسام

يرى أفلاطون في" الجمهورية" (الكتاب العاشر) أن الوجود ينقسم إلى مراتب. لشرح ذلك للطلاب، نستخدم "مثال السرير" الشهير الذي ساقه أفلاطون:

1. **سرير المثل :(The Form)** الفكرة المجردة للسرير، الحقيقة المطلقة التي خلقها الله (أو صانع الكون). هي واحدة، ثابتة، ولا تدرك إلا بالعقل.
2. **سرير النجار :(The Artisan)** السرير الخشبي الملموس الذي يصنعه النجار محاكياً فكرة السرير. هذا السرير "أقل حقيقة" من المثال، لكنه مفيد ونافع.
3. **سرير الفنان :(The Artist)** صورة السرير التي يرسمها الفنان. الفنان هنا لا ينظر إلى "فكرة السرير" (الحقيقة)، بل ينظر إلى "سرير النجار" (الذي هو أصلاً نسخة).

النتيجة: الفنان يقوم بإنتاج "نسخة عن نسخة". وبذلك، يصبح العمل الفني بعيداً **" ثلاث درجات عن الحقيقة."**

ب) الخداع المعرفي(Epistemological Deception)

إن خطورة هذا الابتعاد، وفق المنظور الأفلاطوني، تكمن في أن الفن يخدع العقل. الرسام قد يرسم "لجاماً" بشكل مبهر يخدع الناظر، لكنه لا يعرف كيف "يصنع" اللجام (مثل السراج) ولا كيف "يستخدمه" (مثل الفارس). الفنان لا يملك "التخني (Techne) "أو المعرفة الحقيقية، بل يملك مهارة "توليد المظهر .(Mimesis of appearance) "الفن هنا يصبح نوعاً من "السفسطة البصرية" التي تبيع الوهم بدلاً من الحقيقة.

ج) الخطر التربوي والسياسي(The Pedagogical Threat)

تكتسب نظرية أفلاطون أهميتها القصوى عند ربطها بالوظيفة التربوية للفن في "المدينة الفاضلة". النفس البشرية عند أفلاطون تتصارع فيها قوى العقل وقوى الانفعال. الفن (وخاصة التراجيديا والشعر الملحمي) يخاطب الجزء اللاعقلاني من النفس (العواطف، الخوف، الشهوة)، ويغذيها على حساب العقل.

- **مثال** :عندما نرى بطلاً يبكي وينوح في المسرحية، فإننا نتعاطف معه ونستمتع بذلك. يحذر أفلاطون من أن هذا "الاستمتاع بالضعف" سينتقل إلى حياتنا الواقعية، فيفسد "الحراس" والشباب الذين يجب أن يتسموا بالجلد والثبات. لذلك، يقترح أفلاطون فرض رقابة صارمة، وطرد الشعراء الذين لا يخدمون الغايات التربوية للدولة، والإبقاء فقط على الفنون التي تمجد الآلهة والأبطال (الأناشيد الدينية).

أرسطو: إعادة الاعتبار للمحاكاة والتطهير

على النقيض من أستاذه، يقدم أرسطو في كتابه "فن الشعر (Poetics) "دفاعاً فلسفياً محكماً عن الفن، محولاً إياه من "خداع" إلى "وسيلة معرفة."

أ) الغريزة والمعرفة: لماذا نحب المحاكاة؟

يبدأ أرسطو من فكرة أن المحاكاة "غريزة طبيعية" يولد بها الإنسان، وهي وسيلته الأولى للتعلم. يطرح أرسطو مفارقة ذكية: نحن قد نشمئز من رؤية "جثة" في الواقع، لكننا نستمتع برؤية "رسم دقيق لجثة". لماذا؟ لأن المتعة هنا ليست متعة الموضوع، بل متعة" **التعرف** " .(Recognition)العقل يقول: "هذا هو ذاك!"، وهذه العملية هي عملية تعلم وإدراك. إذن، الفن يخاطب العقل أيضاً وليس فقط العاطفة.

ب) الشعر أوفر حظاً من الفلسفة والتاريخ

النقطة الجوهرية التي يجب إيصالها للطلاب هي أن المحاكاة عند أرسطو ليست "نسخاً فوتوغرافياً" للواقع الجزئي (كما اتهمه أفلاطون)، بل هي "كشف للكلي.(Universals) " في عبارته الشهيرة، يقرر أرسطو أن "الشعر أكثر فلسفية وجدية من التاريخ."

- **التاريخ** :يروي "ما حدث" لفلان (الجزئيات العرضية)، مثل "ماذا فعل ألكيبيادس."
- **الشعر (الفن)** :يروي "ما يمكن أن يحدث" وفقاً لقوانين الاحتمال والضرورة. الفن ينقي الواقع من شوائبه العرضية ليقدم لنا الجوهر الإنساني العام (مثل جوهر الغيرة في "عطيل"، أو جوهر الطموح في "ماكبث"). الفن يقدم الحقيقة العامة من خلال قصة متخيلة.

ج) التطهير :(Catharsis) العلاج بالمثل

رداً على مخاوف أفلاطون من أن الفن "يهيج العواطف"، يطرح أرسطو مفهوم "التطهير" الطبي/النفسي. التراجيديا تثير عاطفتي "الخوف والشفقة" بشكل متعمد ومكثف. ولكن، بدلاً من أن تغرقنا فيها، فهي تساعدنا على" **تصريف** "هذه المشاعر المكبوتة في سياق آمن (داخل المسرح)، لنخرج بعدها بنفسية متوازنة وصحية. الفن هنا يلعب دور "صمام الأمان" الاجتماعي، وليس المحرض على الفوضى.

جدول مقارنة مرجعي موسع: أفلاطون وأرسطو

أرسطو(Aristotle)	أفلاطون(Plato)	المحور
الواقع موجود في الأشياء المحسوسة؛ الجوهر يكمن في المادة (الواقعية).	عالم المثل المتعالي هو الحقيقة الوحيدة (المثالية المفارقة).	**طبيعة الواقع**

أرسطو(Aristotle)	أفلاطون(Plato)	المحور
تمثيل للجوهر والكليات، إعادة خلق إبداعية وفق قوانين الاحتمال.	نسخ للمظهر الخارجي، خداع بصري، تزييف للحقيقة.	**تعريف المحاكاة**
إيجابية (وسيلة للتعلم، إدراك الطبائع البشرية، أكثر فلسفية من التاريخ).	سلبية (تبعد 3 درجات عن الحقيقة، تشوش العقل).	**القيمة المعرفية**
التطهير(Catharsis) ، تحقيق التوازن العاطفي عبر تصريف المشاعر.	تغذية الجزء اللاعقلاني، إفساد التوازن النفسي للأوصياء.	**الأثر النفسي**
دمج الفن في التربية، الفن وسيلة لتهذيب المواطن الحر وقضاء وقت الفراغ النبيل.	الرقابة الصارمة، طرد الشعراء المجددين، الفن كأداة توجيه.	**الموقف السياسي**